ALMORTAJA.COM

تمت ترجمة هذه المقالة من قِبل مجموعة موقع المرتجى و تنشر و تتوزع تبرعياً.

أي نسخة من محتويات هذا المقالة دون ذكر المصدر غير جائزة وتحرم شرعاً

أي بيع مقالات هذاالموقع حرام شرعاًويخضع للملاحقة القانونية

محتويات

مقدمة 3
الفصل الأول: أذي أصاب المسلمين 4
الفصل الثاني:أسباب الأذي الذي أصاب المجتمع الإسلامي 5
أولاً: العداء الصليبي للإسلام والمسلمين: 5
ثانياً: الاستعمار الغربي للمجتمعات الإسلامية: 6
ثالثاً: تقدم الغرب العلمي 7
رابعاً: الضعف الفكري، والتفكك الاجتماعي: 8
خامساً: تخلف الشعوب الإسلامية عن ركب الحضارة: 8
سادساً: الفراغ العقدي: 9
الفصل الثالث: إرهاصات الظهور 10
أولاً: ضرورة الإسلام: 10
ثانياً: حقيقة الإيمان: 11
ثالثاً: شعور الأمة بالحضارة: 12
رابعاً: العلم والدراسة: 13
خامساً: اللقاء الحضاري: 14
سادساً: التفاعل الحضاري: 15
سابعاً: إعداد القوة: 16
الفصل الرابع:الرجاء والأمل 18

الموضوع:

المجتمع الإسلامي والتمهيد للظهور

الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

مقدمة

قد يكون واضحاً: أن المجتمع الإسلامي يرجو ويأمل. أن ينطلق ليؤدي دوره في حركة الحياة. وقد أصيب المجتمع الإسلامي بهزات. كما أنه يمتلك جذوة اتقاد تؤهله لاستقبال المهدي الموعود. حتي يعود المسلمون إلي عزهم ومجدهم. ولا يخفي: أن هناك معايير وضوابط تشير إلي قرب ظهور المهدي. والمجتمع الإسلامي مؤهل في هذا العصر. لأن يساهم باقتدار في صنع ما تحتاجه الإنسانية.

وإذا كان الاغتراب الزماني، والاغتراب المكاني، من المعوقات التي أصابت الأمة. فإن المجتمع الإسلامي يملك فلسفة حياتية بالرجاء والأمل. تعينه هذه الفلسفة لاستقبال المهدي المنتظر. والمجتمع الإسلامي الكبير ما حدث به من أحداث مختلفة تعد عند الباحثين والدارسين: تمهيداً لظهور المهدي الموعود.

والرؤية المستقبلية تشير: أن هذا المجتمع مقبل بالمهدي إلي بناء شخصيته بناء لا يطغي عليه الانفعال، ولا يسيطر عليه التفكير المادي ولا الانحراف الفكري المتأتي من سيولة العقل، وامتداد لا معقول. وإذا كانت المجتمعات الإسلامية عانت من التيارات. مما شغل الناس عن المواكبة العلمية. فإن المجتمعات الإسلامية سوف تسعد بظهور الإمام المهدي. ولاشك أن المؤتمرات المهدوية تبصر الناس بالمواقع، وتعرف علي طريق الصواب. وأن أمة تخطو إلي الأمام. لابد وأن ننطلق بقوة، ووعي، وفهم.

الفصل الأول: أذي أصاب المسلمين

إن ما أصاب المجتمع الإسلامي "غزو فكري" مقصود، يعمل لإذابة الشعوب، وانسلاخها عن عقائدها، ومذاهبها، وحضاراتها، لتصبح مسخاً شائها تابعاً لغيره، يؤمر فيطيع..

ولقد عمل هذا الغزو علي تضليل المجتمعات الإنسانية، وخداعها، والتمويه عليها، وقلب الحقائق، وتشويه الحقيقة، عن طريق تصنيع الكلمة، وزخرفة القول، والدخول إلي المخاطب، من نقطة الضعف، والاستغفال لإغرائه، والإيقاع به، والإيحاء إليه بسلامة الفكرة، وصحة المفهوم المزيف الذي تحمله كلمات الغزو.

ولكم تهاوت أمم وشعوب وأجيال، وتساقطت في هاوية الضلال والانحراف، والفساد الخلقي، والعقدي، والاجتماعي، بسبب تصورات "الغزو" المزخرفة الخداعة، التي يرقص السذج، والجُهّال علي نغم إيقاعها، ويفتنون بسماعها وأناقة ظاهرها.

ولكم عاني الإنسان والشعوب من أولئك الذين يصنعون "الغزو الفكري"، ويصدرونه في موجات، تقتحم الديار والبيوت.

لقد قيدت الإنسانية إلي هاوية الضلال، والانحراف. ولقد كان "للغزو الفكري" في كل جيل، وفي كل عصر دوره التخريبي، في حياة الناس، إلا أن البشرية لم تشهد في مرحلة من مراحل حياتها وضعاً كان فيه "للغزو الفكري" خبراء، ومتفلسفون، وأجهزة، ومؤسسات، كعصرنا الحاضر هذا.

الذي اتخذ فيه "الغزو الفكري" صبغة الفلسفة، والنظرية، والمبدأ، الذي يعتنقه الأتباع، ويدافعون عنه، وينقادون له.. ومما لا ينكر: أنه لم يواجه دين من الأديان، ولا عقيدة من العقائد، مثل ما واجه الإسلام من تحديات، فقد واجه الإسلام منذ فجر تاريخه، تحديات عنيدة من مخالفيه، فقد واجه المشركين في مكة، واليهود في المدينة. ثم لما فتحت الأمصار، وانتشر الإسلام فيها واجهت الثقافة الإسلامية أفكاراً شعوبية إلحادية، وفلسفات وثنية، كالفلسفات المتشددة، واليونانية والهندية، وغيرها.

ولكن الإسلام ثبت أمام هذه التحديات، وانتصر عليها، فقد كان المجتمع الإسلامي آنذاك يعي الإسلام وعياً كاملاً، ويدرك أخطار الأفكار والاتجاهات التي كان يطرحها الفلاسفة والزنادقة، وما تحمله من شبهات.

وهي في جملتها تعمل علي نقل الفكر، من مجال أصالة الفطرة، ومنطق العقل الصحيح، وطريق التوحيد، وطابع الإيمان، إلي مجال الإلحاد والإباحية.

غير أن المجتمع تصدي لهم، وأخذ يكشف زيفهم، ويبين ما انطوت عليه قلوبهم من كيد، ولم تستطع أن تنال من الإسلام عبر العصور.

علي أن من أخطر هذه التحديات هي تلك التي تواجهها المجتمعات الإسلامية اليوم، وهي تحديات تتمثل بالمواجهة السافرة حيناً، والمستترة أحياناً، هذا التحدي الذي يتمثل حالياً بالغزو الفكري الغرب

الفصل الثاني:أسباب الأذي الذي أصاب المجتمع الإسلامي

أولاً: العداء الصليبي للإسلام والمسلمين:

والباحثون يدركون أن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي، في مرحلتين من مراحل تاريخها: فكانت مرحلة القرون الوسطي، قبل وبعد " توماس إلاكويني" . تريد اكتشاف هذا الفكر، وترجمته..

من أجل إثراء ثقافتها. بالطريقة التي أتاحت لها فعلاً تلك الخطوات، التي هدتها إلي حركة النهضة، منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي.

وفي المرحلة العصرية والاستعمارية، فإنها تكتشف الفكر الإسلامي مرة أخري، لا من أجل تعديل ثقافي، بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية، مطابقة لما تقتضه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية أخري، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه السياسات في البلاد الإسلامية .

ويذكر المؤرخون أن الجيوش الأوروبية الصليبية لما هاجمت بلاد الإسلام كانت مدفوعة إلي ذلك بدافعين:

الدافع الأول: دافع الدين، والعصبية العمياء، التي أثارها رجال الكنيسة، في شعوب أوروبا، مفترين علي المسلمين أبشع الافتراءات، محرضين النصاري أشد تحريض علي تخليص مهد المسيح من أيدي الكفار- أي المسلمين.

فكانت جمهرة المقاتلين، من جيوش الصليبيين، من هؤلاء الذين أخرجتهم العصبية الدينية، من ديارهم عن حسن نية، وقوة عقيدة، إلي حيث يلاقون الموت، والقتل، والتشريد، حملة بعد حملة، وجيشاً بعد جيش.

الدافع الثاني: دافع سياسي استعماري، فلقد سمع ملوك أوروبا بما تتمتع به بلاد المسلمين من حضارة، وثروات، فجاءوا يقودون جيوشهم باسم المسيح، وما في نفوسهم إلا الرغبة في الاستعمار والفتح، وشاء الله أن ترتد الحملات الصليبية كلها مدحورة مهزومة .

ويكاد يكون معروفاً، أن أوروبا شنت ثمان حملات صليبية علي الشرق الإسلامي، وقد بدأت الحروب الصليبية منذ منتصف القرن الحادي عشر، واستمرت حتي نهاية القرن الثالث عشر. أي ما يقرب من مائتين وخمسة وعشرين عاماً في ثماني حملات من الحملات المدججة بالعدد والمعدات. ويصف كاهن مدينة (لوبوي ريموند واجيل) سلوك الصليبيين حينما دخلوا علي القدس، فيقول:" حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولي قومنا علي أسوار القدس وبروجها، فقطعت رؤوس بعضهم، وبقرت بطون بعضهم، فكانوا يضطرون إلي القذف بأنفسهم من أعلي الأسوار، وحرق بعضهم في النار.

فكان ذلك بعد عذاب طويل، وكان لا يري في شوارع القدس وميادينها سوي أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم، فلا يمر المرء إلا علي جثث قتلاهم، ولكن كل هذا لم يكن سوي بعض ما نالوه" وروي كاهن نفسه: خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر ويقول في هذا:"لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، فكانت جثث القتلي تعوم في الساحة هنا وهناك، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح، كأنها تريد ان تتصل بجثث غريبة عنها.

وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة، لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمنشفة" .

ويذكر التاريخ: أن الحملة الصليبية عند دخولها بيت المقدس في 15 مايو عام 1099م، قد ذبحت أكثر من سبعين ألف مسلم، حتي سبحت الخيل إلي صدورها في الدماء، وفي انطاكية، قتلوا أكثر من مائه ألف مسلم.

فالأمر خطير، إنه حقد الشر علي الحق، والرذيلة علي الفضيلة وعداوة الشرك للتوحيد، وخصومة الضلال للهدي . وقد صمدت الأمة الإسلامية في وجه هذه الحروب الوحشية التي سلبت، ونهبت، وقتلت وفتكت. وبعد مضي أكثر من قرنين من حروب دامية، اشتد وطيسها، بين كتائب الإيمان، وبين جحافل الشر، ارتدت الحروب الصليبية، وقد باءت هذه الحملات بالإخفاق والهزيمة.

فالقديس "لويس التاسع" قائد الحملة الصليبية الثامنة، وملك فرنسا، وقع أسيراً في مدينة "المنصورة" في مصر. ثم خلص من الأسر بفدية ولما عاد إلي فرنسا، أيقن أن قوة الحديد والنار لا تجدي نفعاً مع المسلمين الذين يملكون عقيدة راسخة، تدفعهم إلي الجهاد، وتحضهم علي التضحية بالنفس، وبكل غال.

إذن: لابد من تغيير المنهج والسبيل، فكانت توصياته: أن يهتم أتباعه بتغيير فكر المسلمين، والتشكيك في عقيدتهم وشريعتهم، وذلك بعد دراستهم للإسلام لهذا الغرض.

وهكذا تحولت المعركة من ميدان الحديد والنار إلي ميدان الفكر ، لأن القضاء علي الإسلام أو تحويل المسلمين عن دينهم، لا يمكن أن يأتي عن طريق القوة المادية، والغزو المسلح.

ولقد بدأت حركة "الغزو الفكري" من منطلق ضرب المسلمين عن طريق الكلمة، بعد هزيمة الحروب الصليبية- كما وجههم "لويس التاسع"- والعمل علي ترجمة القرآن، والسنة، وعلوم المسلمين، للبحث عن الثغرات التي يدخلون منها إلي إثارة الشبهات.

وقد أعلنوا صراحة: أن الإسلام هو عدوهم الأول، وأن أكبر غاية لهم هي ضرب وهدم قواعده" .

لقد فشلت الحروب الصليبية من الوجهة الحربية.. لكن بقي "الغزو الفكري" ينفث سمومه، ويثير الشكوك، وبقيت النزعة الصليبية تتواري خلف ستار من الدبلوماسية، والرياء السياسي، تحرك ما تريد تحريكه، وتقف خلف الغزو الفكري، بكل ما لها من قوة وعلم. ولا شك أن العداء الصليبي للإسلام، هو الدافع الأساس والأصيل "للغزو الفكري" الذي تسلط علي مجتمعات الأمة الإسلامية، ونجد أن هذا العداء أخذ "شكل السعار الوبائي" لدي الأمم الغربية "الصليبية" فأخذوا مستميتين يوزعون السموم، ذات اليمين، وذات الشمال، ويفترون الأكاذيب، ويطمسون الحقائق، ويدبرون المكائد، ويتصيدون السقطات. ثم يدخلون في روع أنفسهم، وبني جلدتهم أنهم أرقي عنصراً، وأفضل عقلاً، وأفلح ديناً، وأنهم أوصياء علي البشرية، وسادة الإنسانية، وهداتها، ومرشدوها" ولقد اشترك الاستعمار الغربي، والجهد التبشيري، والحقد الصليبي، في حرب المسلمين، وتشتيت تراثهم، ونهب ديارهم، بحيث أصبح يخيم عليهم كسحابة سوداء، من البغضاء والكراهية. يتمثل هذا فيما حدث في عام 1918م عندما دخل اللورد اللنبي القدس، وأعلن: " الآن انتهت الحروب الصليبية، كان هذا القائد يعبر عن الروح الأوروبية، الروح الصليبية، التي ظلت متوهجة في أعماقهم طوال تلك الحقب.

وبنفس الحقد الذي صدر عن الجنرال الإنجليزي اللنبي، كان مسلك الجنرال الفرنسي "عورة" قائد الجيش الفرنسي في دمشق حين ذهب إلي قبر صلاح الدين، بعد أن جاء راكباً سيارة مكشوفة، وترجل إلي القبر، وقال قولته المشهورة: " نحن هنا يا صلاح الدين".

وفي اليوم التالي عمل الشئ نفسه في حمص، حيث ذهب إلي قبر "خالد بن الوليد" -رضي الله عنه- وقال: "نحن هنا يا خالد" .

هذا الحقد، والضغن، والمقت، كان سبباً قوياً، في الإغارة علي المسلمين، بشتي الأساليب، والطرق والأشكال، والألوان.

وما زالت تلك الموجة، تعلو، وتشتد، وتمتد، ثقافياً وفكريا، لتخريب قواعد الإسلام، والأخلاق الإسلامية، وإشاعة الأفكار والتيارات الهدامة ، وشغل الأمة الإسلامية، بكل ما هو هامشي في حياتها، حتي لا تدرك اليقظة الواعية، ولا تنتبه إلي ما يحاك حولها.

ثانياً: الاستعمار الغربي للمجتمعات الإسلامية:

لقد تعرض المجتمع الإسلامي في آسيا، وأفريقيا، للطابع الأيدولوجي، للمجتمع الأوروبي، سواء الحديث منه في القرن التاسع عشر، أو المعاصر في القرن العشرين، ولم تكن للمجتمع الإسلامي مناعة كافية في رفض هذا الطابع وتحديه، وعدم تقبله.

فتعرض للغزو الأوروبي، من أجل الصناعة الغربية، منذ أثمر عهد النهضة الأوروبية ثمرته في التحرر والخلاص، من سلطة الكنيسة، وفي استرداد الإنسان الأوروبي حرية الحركة في التجارة، وفي شؤون المال علي العموم، وحرية التفكير والتوجيه السياسي .

وكان الوضع في البداية قبل الاستعمار تربصاً من جانب، بينما كان استسلاماً من أي مجتمع إسلامي، تعرض للتربص والانقضاض، وقبولاً للوصاية الأجنبية والاستغلال الأوروبي من جانب آخر .

ومما هو مسجل في صفحات التاريخ: أن المجتمع الإسلامي وقع فريسة للاستعمار، فقد احتلت بريطانيا: الهند في سنة 1859م ومناطق الخليج الإسلامي، وجنوب شبه الجزيرة العربية في سنة 1849م، ومصر في سنة 1882م، والسودان في سنة 1898م.

واحتلت فرنسا: الجزائر في سنة 1830م، وتونس في سنة1881م، والمغرب في سنة 1912م. واحتلت إيطاليا: طرابلس الغرب في سنة 1911م. واحتلت هولندا: جزر الأرخبيل الاندونيسية تباعاً منذ عام1903م.

وروسيا احتلت القرم قبل القرن التاسع عشر في سنة 1873م، وسيطرت بإشرافها علي المجتمعات الإسلامية في وسط آسيا، وهي: أذربيجان، وكازاخستان، وأوزبكستان، ونوركيستان، وكازيخستان.. سيطرة تامة في القرن التاسع عشر، ولم يسلم من الاحتلال الأوروبي سوي: اليمن، والحجاز، وإيران، ووسط تركيا .

ولا يخفي: أن وقوع المجتمعات الإسلامية تحت سيطرة الاستعمار زاد من اتساع السوق الاستهلاكية لمنتجات الغرب الصناعية، وهذا أدي إلي تفوق الصناعة الغربية. وكلما قوي المجتمع الأوروبي وتفوق صناعياً، كلما زادت رقعة استعماره في قارة أفريقيا وقارة آسيا.

وكلما زادت قبضة أوروبا علي ما تم استعماره، وكلما اتسع نفوذها السياسي والاستغلالي، وكلما زاد ضعف المجتمع الإسلامي، الذي وقع تحت سلطة الاستعمار، زادت تبعيته وتقبله لما يأتي من الغرب.

ويوم أن تحرك المجتمع الأوروبي لاستعمار المجتمعات الإسلامية، كان في قمة مجده، بما أنجزه من الفصل بين الكنيسة والدولة، واستقلاله بالسلطة الزمنية، وبالحرية السياسية، كما كان في أشد الأوضاع حرصاً علي اتجاه (العلمانية) كمثال للإنسانية..

استصحب الاستعمار معه هذا الاتجاه، بما يستتبعه في الحكم، والتوجيه، والتشريع، والاقتصاد، في المجتمع الإسلامي الذي يتمكن منه.

وباستصحاب الاستعمار اتجاه العلمانية، ومحاولة تطبيق هذا الاتجاه، في المجتمع الإسلامي، وهو مجتمع يغاير في خصائصه، وتاريخه, وواقعه.. المجتمع الأوروبي، اضطر هذا الاستعمار إلي أن يسلك طريقاً يمكنه من هذا التطبيق.

وهو عزل المجتمع الإسلامي كلية عن ماضيه، وعن تراثه العقلي، والروحي، والتوجهي، والسلوكي.. فإذا ما تم عزله، أصبحت قيادته ميسرة، وطيعة للمستعمر، وبالأخص للأجيال التي تنشأ في ظل هذه العزلة .

ثالثاً: تقدم الغرب العلمي

لقد كان الغرب يملك تقدماً علمياً فائقاً، وتقدماً مادياً هائلاً، وعبقرية تنظيمية مبدعة، وروحاً من الجلد والصبر علي العمل والإنتاج، وروحاً علمية في مواجهة المشكلات من ناحية الدراسة أو من ناحية التنفيذ .

ولاشك أن التقدم العلمي المذهل للغرب، كان قوياً دفاقاً، له من القوة والانتشار والاستيلاء، ما بهر العقول، وفتن الألباب، ولا غرو فقد بز بذلك كل تقدم علمي عرفه العالم، وسمعت عنه البشرية في التاريخ المترامي الأطراف واستطاع أن يخرج من الأسوار، ويكشف من الاختراعات، ما جعل أبصار الناس

وعقولهم تتعلق به وخاصة أن هذا العلم أصبح في خدمة الإنسان، في كثير من مناحيه، فاتجهت الأنظار، والعقول، والقلوب إلي الغرب، تتطلع إلي ما فيه من اكتشافات تأتي بجديد .

رابعاً: الضعف الفكري، والتفكك الاجتماعي:

لقد أصيب المجتمع الإسلامي بالضعف الفكري، والتفكك الاجتماعي، وذاق من جراء تلك الإصابة مرارة التأخر.

والضعف الفكري، ما أصيبت به أمة من الأمم، أو مجتمع من المجتمعات، إلا كانت الحالة، انحطاطاً في التفكير، واهتماماً بالخرافات والأساطير.

والتفكك الاجتماعي نتيجة حتمية للضعف الفكري.

لأن الضعف الفكري، لا يكتشف للإنسان مخاطر الانزلاق في الهاوية.

ولهذا نجد أن المجتمعات الإسلامية، ابتليت بالطوائف المتعددة والمتناحرة، والمذهبية التعصبية، وتعدد السلطنات والدويلات، التي قامت علي أساس شعوبي أو مذهبي، في هذا المجتمع أو ذاك.

وهذا كله جر المجتمع الإسلامي إلي فوضي قاتلة، وتناحر حقيقي، ونهب وقتل، دون رادع أو وازع.

ومجتمعاً كهذا لابد وأن يتعرض لسيطرة المتربصين به. لقد كانت السلطة السياسة في المجتمعات الإسلامية تعيش في وضع مقلوب، "وفي ذلك الوضع لابد أن تكتمل الصورة المقيتة لأي امبراطورية علي وشك السقوط، بغض النظر عن اللافتة التي ترفعها، سواء كانت امبراطورية بيزنطية، أو رومانية، أو عباسية.لابد أن تتفشي الرشوة، وتكثر مصادرة الأموال، وتتفاقم الاضطرابات الداخلية، مع الانحلال الخلقي، والانشغال بالتوافه عن الخطر الذي يدق الأبواب" .

وأساس انهيار الأمم، يبدأ من الداخل، وقد يأتي تدخل خارجي ليعجل بالسقوط. ولكن يظل الانهيار الداخلي هو بداية النهاية وعاملها الأكبر.

ويأتي الانهيار الداخلي حين تتكون طبقة مترفة تتحكم في الثروة، وفي الجماهير، فتنشر الظلم، والانحلال، وتحيل حياة الأكثرية إلي جحيم تهون فيه الحياة" .

خامساً: تخلف الشعوب الإسلامية عن ركب الحضارة:

إن المجتمعات الإسلامية، حين أصابها الضعف الفكري، والتفكك الاجتماعي، انشغلت بالتافه من الأمور، فقادتها التفاهة إلي التخلف عن ركب العلم، والتقدم، والحضارة..

ومعني هذا: أن المجتمعات الإسلامية، انصرفت عن تعاليم الإسلام، التي تدعو إلي العلم، والمعرفة، واستعمال العقل، والفكر في كل ما من شأنه أن يأخذ بالناس إلي الطريق السليم، "وواكب هذا الانصراف انحطاطاً في القيم، ودعوات إلي الركون إلي المتع، والعبث بالأموال، إلي حد السفه والجنون، والترف والفجور، حتي كان قواد هذا الركب في كل ناد، وكل صحيفة.

مع جهل ضارب، ونفاق ناشب أظفاره، وفساد في كل مجتمع وناد، وتصارع علي كل تافه وخسيس من المادة, وخراب للذمم، وبيع للشرف، وكره للقيم، وضياع للحق، وهضم للحقوق، وذبح للفضيلة" .

هذا التخلف أضعف الثقة بالنفس، وأوقف عجلة التقدم والانطلاق في الشعوب الإسلامية، وجعلها تعتمد في كل شئ علي غيرها.

إن التخلف العقلي لا يكمن في التبلد، والخمول، والنوم، والرضاء بالدون، وموت الهمة.. .

ومن المؤكد أن الأمة التي تفضل أو ترضي بالتواكل، والاستجداد، والكسل، والتبعية، أمة لا تستحق الحياة الكريمة، والحياة الحرة الكريمة لا تتأتي لأمة دون ثمن، والثمن هو التضحية.

ولا يتأتي لأمة أن تشق طريقها في الحياة، وأن تستعيد وجودها وكرامتها، وتعيد صنع حياتها، دون أن تحاول جاهده أن تبني نفسها بناءاً يتفق مع الاعتداد بالذات.

وقد يكون من المسلمات البدهية: أن فقر الأمة في جوهره وجذوره ليس فقراً في السلاح والمعدات، أو فقراً في المال والإمكانات، وإنما يكمن في فقر النفوس وعجزها، وضعف الإدارة واضطرابها.. .

فالتخلف عن ركب التقدم والحضارة، يعود بالمجتمعات الإسلامية إلي الانحطاط، ويقودها طواعية إلي الهلاك، كما تقاد الشاه إلي حتفها بظلفها، ولذا كان هذا التخلف عاملاً من عوامل الغزو الفكري، الذي اجتاح البلاد والعباد.

سادساً: الفراغ العقدي:

من المؤكد لدي الباحثين، أن العقيدة هي الأمر الذي تثق به النفس، ويطمئن إليه القلب، ويكون يقيناً عند صاحبه، ولا يمازجه شك فيه، ولا يخالطه ريب.

ويذكر العقاد: أننا نعني بالعقيدة الدينية طريقة حياة، لا طريقة فكر، ولا طريقة دراسة، إنما نعني بها حاجة النفس، كما يحس بها من أحاط بتلك الدراسات، ومن فرغ من العلم والمراجعة، ليترقب مكان العقيدة من قرارة ضميره. إنما نعني بها ما يملأ النفس، لا ما يملأ الرؤوس أو الصفحات إن العقيدة التي يصح أن توصف بالعقيدة الدينية، هي التي لا يستغني عنها من وجدها، ولا يطيق الفراغ منها من فقدها، ولا يرفضها من اعتصم منها، بمعتصم، واستقر فيها علي قرار ومن يتأمل العقيدة الإسلامية، ويتدبر ما جاءت به من مفاهيم تناولت معضلات الحياة، إن من يتأمل ذلك يحس بالاطمئنان، ويتخلص من الحيرة التي تواجه كثيراً من المفكرين والحقيقة التي أثبتتها مئات السنين الحافلة بالأحداث، والخطوب، والمحن، حقيقة أن العقيدة الإسلامية هي العقيدة الشاملة، والعقيدة المثلي للإنسان، والمجتمع، وهي رعاية للروح والجسد، وعمل للدنيا والآخرة، وجهاد في السلم والحرب، وتنظيم للعلاقات والصلات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات والأمم.

فالعقيدة ضرورة لا غني عنها للفرد والجماعة.. ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد، وتطهر نفسه.. وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك، ويترفع وينهض..

فالفرد بغير عقيدة كالريشة في مهب الريح، تحوله يميناً وشمالاً، فلا يسكن له حال، ولا يستقر له قرار، وليس به جذور تثبته .

والعقائد في الأمم تقف سدوداً بينها وبين الأفكار الوافدة، أو المذاهب المقتحمة، وتعطي أعماقاً للصروح والمجتمعات والأفراد، كما تمنح استقراراً وثباتاً للإنسان في الحياة.

أما إذا تركت الأمم عقائدها، وتخلفت عن غذائها الروحي، وعن عمقها الإيماني ، فإنها تصبح فريسة لمن هب ودب..

الفصل الثالث: إرهاصات الظهور

بعد أن اتضحت لنا أبعاد ما أصاب المجتمع الإسلامي وتياراته، وحركاته، التي تعمل ليل نهار، يبقي أمامنا السؤال الكبير: ماذا فعلنا نحن؟ ما موقفنا من ما أصاب المجتمع الإسلامي؟

إن جزءاً كبيراً مما أصاب المجتمع، حركة فكرية هائلة، وما تنتجه هذه الحركة، يخصنا نحن المسلمين، ويخص عقيدتنا، ولغتنا، وتراثنا، وتاريخنا، وذاتيتنا.

وإن جزءاً كبيراً آخر مما أصاب المجتمع، حركة عملية هائلة، تأخذ المواقع، وتسيطر علي القلوب.

وما أصاب المجتمع الإسلامي بحركته الفكرية والعملية، من أخطر ما نواجه في حياتنا، لأن ما يقوم به من أهداف تقوض الدعائم، يتعلق بأعمق أعماقنا، عقدياً وفكرياً، وحضارياً، وليس هناك أمام المسلمين من سبيل إلا المواجهة وقبول التحدي وإثبات الذات و إلا فلسنا جديرين بالحياة.

ولا يخفي علي أحد: أن السعي إلي إثبات الذات، والعمل علي مواجهة هذه التحديات والتيارات الغازية دليل صحة، ودليل صحوة... إذن- لابد من منهج.

والمنهج الصحيح: هو أن نواجه الفكر بالفكر، ولابد من بناء شخصيتنا، وتحصين أنفسنا، لنصبح ممنوعين من تأثير الغزو، ليست عندنا قابلية له.. وإذا تحصنا، لم يعد للعقبات الكأداء تأثير فينا.

ولعل أخطر ما استهدفه الغزو الفكري، الذي تسلط علي المجتمعات الإسلامية هو هدم شخصية المسلمين، هدماً عقدياً، وثقافياً، وفكرياً.

ولا يخفي أن انهدام الشخصية، يساعد علي قبول الزيوف والأباطيل. كما يدفع إلي التبعية والذوبان.

ولهذا كان لابد إذا رغبنا أن لا تؤثر فينا مخططات المتربصين، أن نبني شخصيتنا. بحيث تكون مصبوغة بصبغة الإسلام. وموسوعة بميسم الإيمان، والشخصية المصبوغة بالإسلام، والموسومة بميسم الإيمان، شخصية إيجابية، تعيش في حركة فكرية، ونفسية، وجسدية، بناءه، تعطي، وتأخذ، وتعطي أكثر مما تأخذ.

ولا شك أن إدراكنا لضرورة الإسلام لنا، ولغيرنا، يفتح أعيننا علي مكانتنا، كما ينبهنا إلي موقعنا ومركزنا.

وجدير بنا، ونحن نخطو علي مجد نسعي إليه، أن نتعرف علي حقيقة الإيمان. فإذا وقفنا علي هذه الحقيقة، وتعلقنا بها كان لنا دور.

ومن شأننا ونحن نتابع الخطي، أن نتعرف علي الإرهاصات التي تكون في مقدمة ما يهيئ الطريق للمهدي المنتظر.

أولاً: ضرورة الإسلام:

إن الإنسان آية الله في خلقه، طبعه ربه علي هذا النحو العجيب، وفطره علي هذه الصبغة الفذة، مقترنة بعديد من الغرائز والميول.

وحينما تشده الأولي إلي زكاة النفس، واستواء الفطرة، وقصد السبيل، فإن الثانية تشده إلي النقيض تماماً.

وبين هذا وذاك يتطلع الإنسان، ويرنو إلي ما يحفظ عليه نقاء معدنه، وصفاء جوهره، وزكاة نفسه، وطهارة قلبه، واعتدال خلقه، وقصد سلوكه، ويجعله علي طول الخط سوي المنهج، قويم السبيل، زكي الباعث، نبيل المقصد، متعلقاً بمعالي الأمور، نائياً عن سفافها، يتطلع إلي ذلك ويهفو إليه، فلا يجده إلا في رحاب الإيمان بالله وأحضان الطاعة له، وظلال القرب منه.

والإنسان بفطرته لا يملك أن يستقر في هذا الكون الهائل، فلابد له من رباط معين بهذا الكون، يضمن له الاستقرار فيه، ومعرفة مكانه في هذا الكون، الذي يستقر فيه. فلابد له إذن من عقيدة، تفسر له ما حوله، وتفسر له مكانه فيما حوله، فهي ضرورة فطرية، شعورية، تقوم بالتأصيل لجوهر الفطرة، ومتابعة بعثها، لضمان استمرار حركتها وعملها وانطلاقها.

ومن هنا: كانت حاجة الإنسان إلي العقيدة حاجة فطرية، مركوزة في فطرته، ومغروسه في شعوره، ومخلوطة بدمه وعصبه، ولكنه قد يضل عن إدراك هذه الحقيقة، فيشقي ويحار، ويفقد الاستقرار.

هذه الحاجة الفطرية في الإنسان إلي العقيدة، هي التي يتحقق بها إدراك الإنسان لحقيقة مقامه في هذه الحياة، ورسالته وعمله ودوره .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً [سورة النساء: الآية 174-175].

هذا الدين لا يزال العالم في حاجة شديدة إليه، ولا خلاص للإنسانية مما تعانيه إلا بالإيمان به، فهو الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر والداعي إلي الحق، وإلي الصراط المستقيم.

ثانياً: حقيقة الإيمان:

من المعلوم أن الإيمان هو نبع الفطرة في صدقها وصفاتها.. وإذا صدق الإيمان في القلب. كان لذلك أثره في عقيدة المؤمن وشعوره، وفي صلته بالله تعالي، وفي جهاده في الحياة، فلا يقبل إلا الحق، ولا يعبد إلا الله، ولا يخشي في الله لومة لائم، ولا يرتبط بالباطل في قول أو عمل، بل يكون شهيداً علي الناس من حوله. يرشد ضالهم. وينصح مخطئهم، ويعطيهم من نفسه المثل والقدوة، بأخلاقه وسلوكه، مؤثراً فيهم بما في قلبه من النور واليقين. غير متأثر بما لدي بعضهم من باطل.

وصاحب الإيمان الصادق لا تزيده الأيام إلا يقيناً، فإن أصابه خير شكر ربه، وأدي حق الله في نعمته، وإن أصابه شر حمد الله، ورضي بقضائه، ولا يضعف ثقته بالله شئ..

قال تعالي في سورة الحجرات: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [سورة الحجرات: الآية 15].

وقال تعالي في سورة الأنفال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ [سورة الأنفال: الآية 2-4].

وكما أن الخوف من الله ومراقبة جلاله أثر من آثار الإيمان الصادق، فإن حب الله، وحب الرسول وحب الإسلام كمنهج للحياة بحيث لا يربو علي هذا الحب شئ أبداً، يدل علي صدق الإيمان كذلك، وعمقه في ضمير المؤمن..

ولاشك أن الإيمان الصادق العميق، يحيا به ضمير المؤمن، وتسلم به اتجاهاته..

فبينما يتخبط الملايين، في دياجير الظلام الحالك، وسبل الضلال، تري المؤمن بوحي من تفاعل الإيمان في كيانه: مرهف الحس، صادق العزم، صالح العمل، لا تستذله الحياة، وما فيها، ولا تعصف به الشدائد مهما بلغت حدتها.

قال تعالي في سورة الزمر: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَي ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَي اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [سورة الزمر: الآية 23].

فقوة الإيمان في نفس المؤمن، ترفع مقتضيات الإيمان فوق كل شئ، وتجعل المؤمن وثيق الرابطة بما يمليه عليه إيمانه، لا يشغله عن ذلك شاغل.. ومهما اشتد البلاء، فإن المؤمن لا يزاد إلا ثباتاً ويقيناً، ذلك لأن قوة الإيمان في القلب، تمد المؤمن في كل أحواله بنور الاهتداء، وكمال الرجاء..

ذلك شأن المؤمن في كل أموره، في عبادته لله، وذكره إياه، وفي حرصه علي مرضاة الله، مهما تكاثرت عليه مشاغل الحياة، وفي خضوعه دائماً لأمر الله وحكمه، وفي كمال ثقته بالله، قولاً وعملاً، وقلباً، وجسداً، وعقيدة، وسلوكاً.

كذلك من شأنه ألا يهادن أهل الباطل، أو يلين في مقاومتهم..

ثالثاً: شعور الأمة بالحضارة:

والباحث: يجد أن مفهوم الحضارة في العصور المتأخرة، قد امتد إلي ألوان من المعني، هي أبعد وأوسع مما رآه ابن خلدون في عصره، وفي البيئة العربية، وفي انتقالها الاجتماعي والسياسي والمدني من البادية إلي الحضر.

إن لفظ الحضارة في مفهومه العام والحديث المعاصر بصفة خاصة، قد أصبح أكثر اتساعاً، مما يدل عليه اللفظ في مفهومه اللغوي التقليدي.. ولذا جاء في المعاجم الحديثة: أن الحضارة هي الرقي العلمي، والفني، والأدبي، والاجتماعي، والاقتصادي في الحضر.

وبعبارة أخري أكثر شمولاً هي: الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة والفكر، ومجموع الحياة في أنماطها المادية والمعنوية.

ولهذا كانت الحضارة، هي الخطة العريضة – كماً وكيفاً – التي يسير فيها تاريخ أمة من الأمم. ومنها الأطوار الحضارية الكبري، التي تصور انتقال الإنسان، أو الجماعات من مرحلة إلي مرحلة .

فالحضارة بكل بساطة، معناها: بذل المجهود، بوصفنا كائنات إنسانية، من أجل تكميل النوع الإنساني، وتحقيق التقدم من أي نوع كان في أحوال الإنسانية، وأحوال العالم الواقعي.

إن الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزماً واضحاً صادقاً عن بلوغ التقدم، ويكرسون أنفسهم تبعاً لذلك، لخدمة الحياة وخدمة العالم .

والحضارة باختصار شديد: هي جملة المظاهر المعنوية التي يخلفها التاريخ، والتي تبقي في المجتمع علي مر الأيام، دليلاً علي القدرات الذهنية المميزة، وتعبيراً، عن روح هذا المجتمع والشعب، الذي يمثله.

ولا شك أن المظاهر المعنوية، تأخذ قوالب مادية مختلفة، تتجسم فيها تلك المعنويات، وتشكل المظاهر المعنوية في صور مختلفة كالفنون والآداب والعلوم والمعارف. ومجموع ما ينتج عن ذلك كله من تسجيلات ومشاهد في الآثار والعمائر وأسلوب الحياة، وآداب المعاش اليومي .

فالحضارة تحقيق للراحة الإنسانية، في جوانبها المتعددة، المتقابلة المتكاملة، جسدية، وعقلية، ونفسية، وروحية؛ والسلوك الحضاري هو جواب الإنسان علي التحدي الموجه له؛ تحدي الطبيعة المادية من جهة، وتحدي حاجاته هو من جهة أخري، وتحدي الإنسان الآخر أو المجتمع من جهة ثالثة.

ويأتي هذا الجواب الإنساني في شتي مجالات الآداب، والعلوم، والفنون. كما تشمل أيضاً صور الإنتاج المادي من عمائر، وطرق، وجسور، وقناطر، وغيرها.

ومن مجالات الحضارة العقائد والعوائد والأدب الشعبي، وأدب الخاصة، أو الأدب الرفيع، والنظم السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية كما لا يخرج عنها تخطيط المدن والعمارة ووسائل النقل، وأساليب المأكل والمشرب والزينة والترفيه .

والحضارة علي أية حال، تمثل كل مظهر من مظاهر الإنتاج البشري، وغالباً ما يحدوها سلوك الإنسان وطرق معيشته وتفاعله مع البيئة.

لذا كان من الطبيعي أن تختلف كل حضارة في مظاهرها عن الحضارات الأخري، فلكل حضارة من الحضارات قديمها وحديثها مظاهر مميزة .

والعقل البشري استطاع بما اكتسب من خبرة ودربة، ومرانة، أن يصنف المعارف الإنسانية، وأن يحكم ما بينها من وشائج، وأن يستفيد بما بينها من صلات وروابط.

والنتائج العلمية متصل بعضها ببعض، ويعتمد بعضها علي بعض. والحضارات الإنسانية، ليست ملكاً لأمة بعينها، ولا هي وقف علي جماعة من الناس. لأنها صرح هائل قد أسهمت فيه كل أمة بنصيب.

والحضارات الإنسانية، قد تتشابه في مظاهرها، وفي عناصرها، وفي أسلوبها، ولا سيما إذا تعايشت في وجهات متقاربة.

والحضارات الإنسانية، سلسلة محكمة متينة الحلقات، يؤثر سابقها في لاحقها، ويتأثر حاضرها بماضيها، وينتفع بعضها من بعض .

ولقد تواجدت حضارات مختلفة في الزمان والمكان، وانتفعت من بعضها انتفاعاً أدي إلي تقدمها عند الكثير.

وتشكل الحضارة مجموعة الصفات، والمزايا المشتركة لمجتمع، أو لمجموعة من المجتمعات، وهذه الصفات تمثل مجموع الحلول التي أوجدتها أو تبنتها مجموعة اجتماعية ما، تندمج بشكل عام، في جو واسع جداً، ومكان جغرافي طويل جداً من التاريخ.

وتستخدم هذه الأساليب المادية، والتقنية، والمفاهيم لحل جميع المشاكل، التي يطرحها وجود هذه المجموعة: الاتصالات، وإصلاح وتوزيع الأراضي، واستثمار الثروات، وكذلك الحياة الاقتصادية، والفكرية، والسياسية، والدينية.

والفاحص المدقق: يجد أن تيار الفكر الحضاري الإنساني، يتخذ طابعاً واحداً، لا ينحو كثيراً عن تاريخ الإنسان ذاته.

فالحضارات والثقافات المختلفة، تتفاعل مع بعضها. فتنتج للإنسان ما يشبع حاجته الفكرية والمادية..

وبذا فإن الحضارات الإنسانية علي مر العصور، تكون كلاً متماسكاً. يترابط بنيانه العضوي، كحلقات السلسة الواحدة، التي لا تنفصم الواحدة منها عن الأخري..

ولا يمكن أن تكون كل حضارة نشأت بمعزل عن غيرها من الحضارات الأخري. أو أنها لم تتفاعل معها.

ونظرتنا الأساسية تقوم علي أن الحضارات تأخذ وتعطي. تأخذ ما يتفق مع طبيعة البنيان العقلي والفكري للأمة. وتعطي ما تجود به نوعيتها ونشاطها الفعال. وبطبيعة الحال، فإن هذا التفسير أقرب إلي فهم روح الفكر، والنشاط الإنساني المتصل، الذي بدأ تاريخه ومسيرته مع بداية الإنسان علي هذه الأرض .

ولا يخفي: أن النشاط العقلي، والإنتاج الحضاري، لابد وأن يستند إلي أدلة ملموسة، والأدلة في هذه الحالة.

إما مادية مثل النقوش والمعابد، والآثار والمنشآت، وكل شكل الإنتاج التكنولوجي. وإما فكرية مثل الوثائق، والمؤلفات، والكتب، والنظريات العلمية، والآراء المدونة كتابة.

رابعاً: العلم والدراسة:

إن الإسلام ينظر إلي الإنسان علي أنه خليفة في الأرض. قال تعالي: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً [سورة البقرة: الآية 30].

وقد فضل الله الإنسان وكرمه. كما وضح ذلك في قوله تعالي: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَي كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً [سورة الإسراء: الآية 70].

وهذه الكرامة التي اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد مختلفة. فهي حماية إلهية للإنسان، تنطوي علي احترام حريته، وعقله، وفكره، وإرادته.

وهذه الكرامة تعني في النهاية: الحرية الحقيقة، وهي تلك الحرية الواعية المسئولة التي تدرك أهمية تحملها أمانة التكليف والمسئولية. التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالي: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ [سورة الأحزاب: الآية 72].

وإذا كان الله قد اختص الإنسان بالتكريم، وجعله مكلفاً ومسئولاً، فإنه من ناحية أخري قد خلق له هذا الكون، بما فيه، ليمارس فيه نشاطاته المادية، والروحية علي السواء.

يقول الله تعالي: وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [سورة الجاثية: الآية 13].

والتفكير الذي تنص عليه الآية هنا أمر جوهري لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان .

فإنه إذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون. فلا يجوز له أن يقف منه موقف اللامبالاة، بل ينبغي عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفاً إيجابياً، وإيجابيته تتمثل في درسه، والنظر فيه، للاستفادة منه، بما يعود علي البشرية بالخير.

والاستفادة من كل المسخرات في هذا الكون، لا تكون إلا بالعلم والدراسة والفهم.

والنظر في ملكوت السموات والأرض علي هذا النحو، سيؤدي إلي الرقي المادي، وفي الوقت نفسه، إلي الرقي الروحي . والحضاري.

والحضارة الإسلامية هي عمارة الأرض، وترقية الحياة علي ظهرها خلقياً، وعلمياً، وأدبياً، وفنياً، واجتماعياً، وفق منهج الله وشريعته.

وبناء علي هذا المفهوم. فإن المجتمع الإسلامي، – وهو المجتمع الذي يطبق شريعة الله في كل جوانب الحياة– هو وحده المجتمع المتحضر.

والمجتمع المتحضر . هو الذي تكون القيم الإنسانية، والأخلاق الإنسانية التي يقوم عليها، هي السائدة فيه. وهذه القيم هي التي تنمي خصائص إنسانية الإنسان، وهي التي تميزه عن غيره من المخلوقات .

وهذه القيم إنما هي قيم إنسانية، ذات ميزان ثابت. وهي مقررة في الشريعة الإسلامية منذ جاءت، وما علي الإنسان إلا أن يمضي في بنائها وصيانتها في كل المجتمعات التي يقيمها، حضرية كانت أم بدوية؛ صناعية كانت، أم زراعية.

فالمهم في كل الأحوال هو الارتقاء صعداً بالحقائق الإنسانية وحراستها من النكسة إلي الحيوانية التي تؤدي إلي التخلف.

إن الحضارة الإسلامية تقوم بهذه القيم، وبهذه الأخلاق، في كل مكان، وفي كل بيئة. أما أشكالها وصورها المادية، فهي كثيرة ومتنوعة، لأنها في كل بيئة تستخدم المقدرات والمعطيات الموجودة بها فعلاً، وتنميها وفقاً لميزان الله الثابت، وقيم الإنسان المقررة في شريعة الله .

فالإسلام حين يدخل المجتمعات البدائية ينشئ الحضارة المناسبة لهذا المجتمع. وحين يدخل المجتمعات المتقدمة صناعياً أو زراعياً أو غير ذلك، فإنه يستخدم كل ما لديها من معطيات. ويقيم حضارة هذه المجتمعات مستفيداً مما لديها.

وإذا كان هذا هو مفهوم الحضارة الإسلامية، فإن التخلف الحقيقي– في مفهوم المجتمع الإسلامي المتحضر - هو تحويل منجزات العلم الهائلة إلي قوي باغية للتدمير والتسلط، وتسخير إمكانيات العلم غير المحدودة في نشر الفوضي والعادات غير الخلقية، بدلاً من استخدامها في إعلاء القيم الإنسانية، وفي خدمة الإنسان دون بغي أو ظلم أو تحكم أو إبادة.

إن مهمة العلم في مفهوم المجتمع الإسلامي المتحضر ليست قهر الطبيعة أو الانتصار عليها، بل التلطف مع الطبيعة، والجد في اكتشاف قوانين الله فيها .

وإذا كان هذا هو عمل الإسلام حينما ينشئ حضارة، فإن هذه الحضارة التي دعا إليها الإسلام، تتميز بأنها منفتحة الحدود الفكرية، والنفسية، والمادية.

وسيراً في ضوء هذا المنهج الإسلامي وجدنا العصور الذهبية للمسلمين، تفتح صدورها لامتصاص المعرفة الإنسانية المادية التي خلفتها في الأمم والشعوب، وحضارات سالفة .

خامساً: اللقاء الحضاري:

اللقاء الحضاري الإسلامي؛ مع حضارات الأمم المختلفة، تم بناء علي: أن العالم هو أقرب ما يكون إلي "منتدي" عالمي لحضارات متميزة، تشترك أممها في عضوية هذا المنتدي، ومن ثم فإن بينها ما هو "مشترك حضاري عام". وأيضاً فإن هذه الأمم تتمايز حضارياً .

الأمر الذي يستدعي الحفاظ علي الهويات الحضارية المتميزة، لا لمجرد الحفاظ عليها، رغم أهميته، إنما لأسباب وطنية، وعقدية، تلعب دورها، في إنهاض أمم كثيرة من كبوتها وتراجعها.

لما لهذه الخصوصيات من قدرات علي شحن شعوب هذه الأمم بالكبرياء المشروع، والطاقات المحركة، في معركة الإبداع، ولما للتعددية الحضارية من دور في إثراء مصادر العطاء العالمي" .

والذين يعايشون حياة الشعوب والأمم ذات الحضارة الغنية، والتاريخ القديم، والتراث العريق، أو يغوصون في تراث هذه الأمم وفلسفتها، ومذاهبها، وتقاليدها، وأعرافها، يدركون أن العالم الإنساني به أمم متعددة، تتميز كل منها بشخصيتها القومية، والحضارية المتميزة.

إن العناصر الخارجية ضرورة حتمية، لا تستغني عنها أي حضارة، مهما سمت وارتفعت. إنها تمتزج، لتكون وإياها صيغة جوهرية تختلف من تراث إلي آخر. وهذه العناصر الخارجية، تأتي بطريق الاقتباس الإرادي المباشر المقصود. والاقتباس والنقل، عملة متداولة بين الشعوب قاطبة، فكل حضارة أبدعت ونقلت وأخذت وأعطت، ولم توجد قط حضارة أبدعت ولم تنقل، فالنقل، ليس وباء وإنما هو غذاء، والاستعارة ليست عاراً، وإنما هي فخار.

فالتأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب، إنما هي ظاهرة صحية طبيعية سليمة، لا خطر فيها ولا خوف منا .

والمسلمون هم وارثو الحضارات القديمة، إذ لم يكونوا قبل الإسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملة. فقد انفردت الصحراء العربية بين صحاري العالم أجمع، بأنها أحيطت منذ القدم بأرقي حضارات العالم.

ففي الشمال ازدهرت حضارة المصريين القدماء، وفي الشرق كانت الحضارة الفارسية، ومن ورائها الحضارات الآسيوية الأخري. وفي الجنوب كانت حضارة اليمن.

سادساً: التفاعل الحضاري:

التفاعل الحضاري ضرورة إنسانية، لابد منها لقيام الحضارات، وتقدم الإنسان، في كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان، ويشيع في المجتمعات الإنسانية السلام والأمن.

أما الانغلاق الحضاري، فهو قاتل للإنسان. والتبعية الحضارية هي الأخري قاتلة لكل إبداع، ولابد من حوار الحضارات.

وإذا تأملنا في حالة الأمة الإسلامية وجدنا أنها– من وجهة نظرنا– محاصرة بين غُربتين: غُربة زمان، وغُربة مكان.

أما غُربة الزمان، فهي بُعد الأمة عن ماضٍ حضاري مشرق، لم تعد تربطها به عوامل الثقافة الفاعلة أو البانية. وأما غُربة المكان، فهي بُعد الأمة عن وضع حضاري معاصر.

تجهل عنه كل شئ. مما مثل فجوات حضارية كبري، ليس من السهل علي الأمة الإسلامية تجاوزها أو تجاهلها.

ولذلك كان لابد لهذه الأمة، أن تعود إلي التفاعل الحضاري، وتستفيد من حضارات الإنسانية، ولابد من خروج الأمة الإسلامية، من الاغتراب الزماني، والاغتراب المكاني، وذلك بالرباط بين الواقع والثوابت الحضارة الإسلامية، وبين مصادر عوامل التقدم المعاصر وليس هناك من وسيلة للربط غير الدين، والعلم، والحياة، في إطار من حرية الفكر، وسياسة عقلانية للتقدم، وتسامح مستنير .

فإن فعلت الأمة ذلك، كان ذلك بداية في طريق حضاري. والتقدم البشري في مختلف المراحل والمجالات، ليس إلا حصيلة الإبداع الفكري والتعاون، والاحتكاك بين المجتمعات.

ولا عيب أن نأخذ من حضارات الأمم ما يفيدنا. ولكن العيب أن نظل عالة علي أمم الأرض، نأخذ منها ولا نعطي..

ويجدر ان ندرك أن الانغلاق ليس بالموقف اللائق بالعقلاء. ولا التبعية الحضارية بمفيدة، أو ملائمة لمن يمتلكون خصوصية حضارية إسلامية.

والعزلة الحضارية والجهل صنوان. كلاهما تخلف، وكلاهما حجاب يمنع وصول الضوء، وكلاهما عقبة كأداء في طريق التطور والتقدم.

ويكاد يكون مؤكداً، أنه لا توجد حضارة قامت بذاتها، واكتفت بذاتها مستغنية عن غيرها. وإنما هي نتيجة تطور حضاري دائم، وتفاعل بين حضارات أخري، تفاعلت هي بدورها وغيرها من الحضارات في الزمان والمكان.

والنمو الحضاري إنما يعتمد علي التجارب الحضارية الأخري.

وكلما ازدادت فرص الالتقاء والتفاعل بين الحضارات، ازدادت فرص الحياة والنمو والاكتساب والتعلم.

والأمة الإسلامية وهي تتطلع إلي مستقبل مشرق، لابد وأن تخوض معركة بناء الذات وتجديدها، مسوقة بقيم وأفكار ومواريث لها في وعيها فاعليتها القوية.

ولا يخفي أن الأمة الإسلامية تملك رصيداً ضخماً من القيم الهادفة وتوجيهات الإسلام، وهذه القيم كفيلة عند استثمارها، بأن تجعل الأمة الإسلامية في وضع، يسمح لها بأن تنمي فسلفتها الحضارية الإنسانية، وتتسابق مع أمم الأرض في بناء حضارة إنسانية.

ومما هو معروف انه ليس كل عمل يصدر من الإنسان يسهم في الحضارة الإنسانية. وإنما ذلك العمل الذي ينمي الحضارة، وينطلق من الإنسان للإنسان.

سابعاً: إعداد القوة:

الصراع بين الأحياء من طبيعة الحياة، وقد ثبت بالتجربة، أنه أمر لابد من وقوعه بين الناس، مهما ارتقت أفكارهم، أو تقدمت وتطورت معارفهم وحضارتهم، والدليل الواضح علي ذلك، ما يقع بين الأمم من الحروب العالمية، وهذا التسابق المحموم في أسلحة الفتك والدمار والخراب، رغم ما توصلوا إليه من العلم والحضارة المادية، والتقدم .

فالحرب لا يمكن أن تزول من الدنيا، أو تخف حدتها، أو تحصر ويلاتها، ذلك أنها بكل ما فيها من مرارة وآلام، وبكل ما تنطوي عليه من قسوة، وبطش، وإخلال بالأمن والسلام، سر من أسرار الحياة، وجوهر من جواهره.. لأن الحياة هي الحركة، والحركة هي التي تحول المادة وتغيرها، بما تحدثه من احتكاك وصدام، وصراع مستمر..

إن كل ما في الكون، من عناصر مركبة، أو بسيطة في كفاح مستمر، بين أجزائه المختلفة.. فالماء، والهواء، والحرارة، وبقية العناصر، كلها في حرب دائمة.. ومن هذه الحروب تنشأ جميع الظواهر الطبيعية والجغرافية، التي تؤلف مسرح الحياة..

فالرياح، والعواصف، والسحب، والبروق، والرعود، والصواعق، والسيول، والأمطار، والزلازل، والبراكين.. هي مظهر هذا القتال، فما من ذرة من ذرات الكون إلا ويجري فيها هذا الصراع.

وحسبك أن تنظر إلي قطرة من الماء من خلال مجهر، أو تري قطرة من الدم لتري فيها جيوشاً جرارة، في كر، وفر، وإقبال، وإدبار، يلتهم بعضها البعض الآخر، بعد أن يصرعه.

وما كان الإنسان ليشذ عن هذه القاعدة، وهو أرقي صور الحياة، وأملها، غير أن العقل والأديان، قد نظمت قواه، وحدت من غرائزه، التي تدفعه للقتال، دائماً وأبداً.. لكنها لم تقض علي هذه الغريزة.. وإلا لقضت علي الحياة في أساسها، فبقيت غريزة القتال كامنة في النفوس، لا تلبث أن تحتدم، متي وجدت دواعيها، وتهيأت أسبابها.. وما أكثر الأسباب والدوافع، التي تفضي إلي المنافسة بين أبناء البشر .

والإنسان حين يفقد سلامه النفسي في داخله، يفقد سلامه الاجتماعي والعالمي في خارجه، ويعدم الراحة، والهدوء، والانضباط، ويتلفت عن يمين وشمال، فلا يري إلا جيوش الأهواء والنزوات، وفيالق الأثرة والمطامع تدق طبولها، معلنة، علي قراره الذاتي، وسلامه النفسي، حرباً ضروساً، لا تلبث إلا ريثما يضيق بها ميدان وجدانه، ومجال مشاعره، لتمد ألسنتها، حامية الوطيس، مشتعلة الأوار، خارج هذا النطاق، لتأتي علي الأخضر واليابس، من علائق الأفراد والجماعات، والأمم، ومقدراتها، وممتلكاتها، ومناطق نفوذها، وما سطرته يراع الإنسانية من معالم الحضارة، ومشاهد التقدم، ووسائل المدنية، التي ترمي إلي ترقية الحياة، وتهذيبها..

والويل كل الويل، يوم يذر قرن الفتنة، وتشرئب الأهواء النافرة، والنزعات الشاردة، والمطامع الفاغرة، معلنة إصرارها علي طمس الحق وأهله. لهذا كان حرص الإسلام البالغ، علي أن يتصف أهل الإيمان بالقوة، وعلي أن يكونوا دائماً علي استعداد لمواجهة أهل الباطل، مهما تكن التضحيات في النفس، والأهل والمال.. والتحفظ الوحيد الذي وضعه الإسلام علي قوة المسلمين، هو أن تكون قوتهم في خدمة العدل والسلام، وأن تنأي عن البغي والعدوان.

قال تعالي: وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ [سورة الحج: الآية 40].

ذكر القرطبي في تفسيره: أنه لولا ما شرعه الله تعالي للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولي أهل الشرك، وعطلوا ما بنته أرباب الديانات، من مواضيع العبادات، ولكنه دفع بأن أوجب القتال، ليتفرغ أهل الدين للعبادة.. فالجهاد أمر متقدم في الأمم، وبه صلحت الشرائع، واجتمعت المتعبدات .

حقاً: إن الإسلام حين يضطر إلي القتال، فإنما يمارس أشرف أنواع القتال وأنبله، ذلكم الذي لم ولن تعرف الدنيا عدلاً ولا نظيراً، من قريب أو بعيد، من حيث أسبابه، وأهدافه، وغايته، وملابساته، وظروفه..

الفصل الرابع :الرجاء والأمل

لقد جاءت رسالة الله سبحانه وتعالي إلي خلقه، ونزل وحيه إلي عباده من كماله وعظمته ورحمته، ما يطبهم ويصلح شأنهم، ويرتقي بهم إلي ما فيه خيرهم جامعاً للفرائض، مبيناً للحدود، متوخياً من الأساليب أقوامها في تربية الناس، ومن المناهج أقواها في إصلاحهم.

ولقد كان الترغيب والترهيب من أبرز ما عالج به الإسلام شطط الإنسان وجموحه وتمرده علي الحقوق وما يدور في فلك ذلك من معصية وانحراف.

الأمر الذي يؤدي فطرياً إلي أن تتحرك نفس الإنسان من خمود، وأن تستيقظ من سبات، وإن تختلط فيها بواعث الرغبة بعوامل الرهبة وأن تمتزج فيها دوافع الخوف، وموجبات الرجاء.

والرجاء في اللغة: هو الطمع فيما يمكن حصوله، ويرادفه الأمل.

والرجاء في الاصطلاح: تعلق القلب بحصوله محبوب في المستقبل، وقيل هو توقع الخير ممن بيده الخير. والرجاء: الاستبشار بوجود فضل الرب تعالي والارتياح لمطالعة كرمه. وهو من أجل منازل السالكين وأعلاها وأشرفها.

والرجاء عبودية بالله من حيث اسمه البر المحسن. فذلك التعبد والتعلق بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الذي أوجب للعبد الرجاء من حيث يدري ومن حيث لا يدري.

فقوة الرجاء علي حساب قوة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وغلبة رحمته علي غضبه.

ولولا روح الرجاء لتعطلت عبودية القلب والجوارح، ولولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات.

فالرجاء يحفظ علي النفس بسطها وتفتحها وتطلعها إلي الكمال، وتدرجها فيه وانطلاقها في أفق أعلي تحلق فيه بكل أملها في الله وأمنيتها عنده ورجائها إياه، لا تقيدها عقيدة، ولا يحبسها ذنب، ولا يوقف سعيها بأس، ولا يجمد حركتها قنوط.

ولا يقطع الطريق عليها إلي الله سعار المادة، ولا تعثر الفطرة، ولا يضيق عليها الخنادق أبداً مهما كانت قبضة المعصية أو ضراوة الخطأ أو شراسة الإثم.

والإيمان لا يزكو في النفس، ولا يستقيم المؤمن بعبادته علي الجادة، إلا إذا لفه الخوف من ربه، وغمره الرجاء فيه، وأيقن تماماً أن الجنة والنار كليهما أقرب إليه من أي شيء.

ولو يعلم الناس ما لدي الله من العدل والعقوبة، ما أقدم عل معصيته أحد، ولو يعلمون ما لدي الله من الفضل والمثوبة ما قنط من رحمته أحد.

فالله سبحانه وتعالي لم يطمعنا في شئ قدر ما أطمعنا في رحمته ولم يحذرنا ما حذرنا من عقابه، ولم يسرع بشيء قدر إسراعه بقبوله ورضوانه وقربه لأهل دعائه ورجائه، والأمل فيه والقرب منه.

والإيمان لا يكتمل، والعبادة لا تستقيم، إلا إذا حلق المؤمن في دينه وأعماله بجناحي الخوف والرجاء. من حيث يدفعه الخوف إلي اجتناب التفريط والبعد عن القصور، والتراخي، وضبط النفس علي حسن العمل، وإتقان أدائه والإخلاص فيه، ومراقبة الله في جليله ودقيقه.

والإنسان لا يستوي يقينه ولا يكتمل إيمانه، ولا يصلح عمله، ولا تستقيم عبادته، ولا تزكو فطرته، إلا بخوفه من ربه ورجائه فيه، ولا يتزن الإنسان ولا تستقيم مسيرته في الدنيا، ولا يصلح بين يدي ربه ومصيره يوم القيامه، إلا إذا كانت حياته مزيجاً من الخوف والرجاء، وأمشاجاً من رغبته في ربه ورهبته منه.

لذا جاء الإسلام يدعونا إلي الخوف من الله سبحانه وتعالي والرجاء فيه. الخوف الذي نستشعر فيه عظمة الله وجلاله وقيوميته ومواقبته وخشيته والشعور الموصول بهيبته إلي غير ذلك مما يقود إلي تعظيم محارم الله، واحترام حدوده، والتطبيق الكامل لأوامره، والانتهاء التام عن نواهيه.

والرجاء الذي يفتح للمؤمن بالله باب الأمل والتطلع إلي ما لدي الله من فضل ما أعده للعاملين المؤمنين من مثوبة، وما وعدهم به من أجر مضاعف ونعيم مزيد ثم ما يمنحه هذا الرجاء للإنسان من نعمة التعلق بالله واللجوء إلي: أن يقيله إذا عثر، وأن ينهضه إذا كبا، وأن يمد إليه يد العون بحبل الإنقاذ والنجدة

ساعة الضيق ولحظات الحرج. فالرجاء والأمل جناحان بهما يطير المؤمنون بالله سبحانه وتعالي إلي كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع المقربون كل عقبة كئود.

والمسلمون في حاجة إلي الإدراك الواعي بعمق مفهوم الرجاء في الرسالة الإسلامية ولا رجاء للمسلمين في شرق ولا غرب ولا في مذاهب دبجها سماسرة الفكر البشري. فالرجاء كل الرجاء في الله سبحانه وتعالي، وفي رسالة الإسلام التي جاءنا بها الرسول الصادق الأمين في المهدي الموعود. ولعلنا ندرك في وضوح أن الله سبحانه وتعالي ربط المسلمين برسالة الإسلام وبالاقتداء بصاحب الرسالة الكبري محمد عليه الصلاة والسلام، حتي لا يضل المسلمون الطريق السليم ولهذا قال الله سبحانه وتعالي: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً [سورة الأحزاب: الآية21].

ومن هنا كان كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية الراجين لله سبحانه وتعالي صورة حية لحياة الرسول الصادق الأمين، بياناً، وجهاداً، وعبادة، وثباتاً، وإقداماً، وحزماً.

ولو يعلم الناس ما لدي الله تعالي من فضل ورحمة لأهل خشيته والخوف منه والإجلال له، وأصحاب القرب منه، وللجوء إليه، والرجاء فيه، لأوغلوا في ذلك، وألحنوا فيه، وأكثروا من طمعهم في الله.

ويوم أن كان المسلمون يرجون الله سبحانه وتعالي وحده كانوا سادة الدنيا بحق وكان العدو يتهيب بأسهم ويخشي سلطانهم وكان الشرق والغرب يعمل لهم ألف حساب.

الهوامش